



حافظ الأسد سورية إلى سورية الأسد، مزرعة شخصية تستظل بظله الأبوي وتأتمر بأوامره ويحلبها زبائنه لمنفعتهم، ويستخدمها هو كورقة يراهن عليها في مغامراته المناطقية والدولية.

توريث الحكم لبشار الأسد كان تكريساً واضحاً لمفهوم المزرعة الشخصية. فقد أجمع معظم المحللين أن السوريين قد دُجنوا تماماً بعد ثلاثين سنة من الطغيان الأسدي الشرس بحيث أنهم استكانوا لهذا الخرق الواضح لمفاهيم الجمهورية وقبلوا بأسطورة القيادة الأسدية المؤبدة التي تنتقل عبر الجينات من أب لابنه، الأكبر أولاً والثاني لاحقاً عندما تدخل القدر وحرّم الأب القائد ابنه البكر الذي كان يُهيأ للقيادة منذ طفولته. مع ذلك تفاعل السوريون بصغر سن بشار وتعليمه وحياته في بريطانيا ومظهره الحدائي وزوجته الحمصية-البريطانية الأنيقة، ولكنه سرعان ما خيب أملهم واستعاد سياسات والده القمعية وتوجهاته الطائفية وزاد عليها نيوليبرالية اقتصادية متهورة وقبلية عائلية جشعة واستزلاماً كاملاً لإيران.

مع ذلك لم تكن ثورة آذار ٢٠١١ الشعبية متوقعة. بل إن العديد من المحللين بمن فيهم بشار الأسد نفسه استبعدوا تماماً احتمال أن ينتفض السوريون، بسبب القمع العنيف والاستخبارات المتغلغلة في كل مفاصل المجتمع وفق تحليل المراقبين، ولأن وجهات نظره متوافقة مع وجهات نظر شعبه على رأي بشار الواهم الذي صرح به لجريدة «ول ستريت» الأميركية قبل اندلاع الثورة في سورية بأسابيع قليلة. صحيح أن السبب المباشر للانتفاضة الشعبية كان التعذيب الإجرامي للأطفال درعا بأوامر مباشرة من ابن خالته عاطف نجيب رئيس الأمن السياسي في درعا آنذاك، إلا أن أسباب الغليان المتراكمة على مدى عقود أربعة من الاضطهاد أكثر من أن تعد. ما كان ينقص السوريين جرعة الأمل التي أمدتهم بها ثورات العرب الأخرى في تونس ومصر وليبيا واليمن، والقشة التي مثلها تنكيل عاطف نجيب بأطفال درعا ثم إهانته لأمهاتهم وآبائهم من بعد. اندلعت الثورة حقيقية وشعبية في أرجاء المحافظات الريفية السورية التي عانت أكثر من المدن الكبرى من عنت النظام وإهماله. قابلها النظام بما هو متوقع منه: قتل واغتيال واعتقالات وتعذيب وإهمال تام لكل مطالب الشعب.

تعسّرت الثورة رداً على إجرام النظام وقتله المتظاهرين، وفقدت بذلك براءتها الأولى. لكن وهم المحافظة على البراءة الذي طالب به العديد ممن لم يكتنوا ببطش النظام خيالي. فالقتل الشديد والعشوائي الذي مارسه النظام لم يترك مجالاً للمقاومة السلمية. كذلك كانت تصفية الزعماء المدنيين الذين أفرزتهم الثورة السلمية والإفراج عن المتشددين من الإسلاميين خطوتين في طريق عسكرة الثورة لتبرير القضاء عليها بطرق دموية. ووقعت الثورة في الفخ الذي لم يكن منه مفر. تحولت إلى حروب أهلية مناطقية وطائفية أرادها نظام الأسد وحصل عليها. وتشردت إلى جبهات وفصائل مقاتلة ومنظمات إسلامية إرهابية الجذور والأهداف لها أجنداث لا علاقة لها بتحرر السوريين بل تعمل على قمعهم ومحو ما حصلوا عليه من حقوق مدنية، مكملّة في ذلك ما برع فيه نظام الأسد سابقاً. وارتفعت هذه القوى المتقاتلة بممولين خارجيين لهم حسابات أخرى لا تقيم وزناً للسوريين ولمعاناتهم، بل يسرها أن ترى سورية خراباً وأهلها مشردين وتراثها تتناهبه الأيدي.

فشلت الثورة في تحقيق أهدافها فشلاً تراجمياً لتضافر كل الظروف ضدها. ودُمرت سورية وطناً وأرضاً وشعباً وثروة وفكرة. دمرها حاكمها وباغيها، وعاونها في ذلك أعداؤه وحلفاؤه، كلّ لغاياته. ومع ذلك، ومع أننا في هذا الأذى ما زلنا نضع أيدينا على قلوبنا هلعاً مما يحصل لسورية وفي سورية بعد ست سنوات على هبتها في وجه جلالها، فإن ثورة آذار ٢٠١١ لن تُحى من ذاكرة السوريين، بل ستدخل تاريخهم كنقطة مضيئة عادت فيها إليهم روحهم ووعيهم بذاتهم ولو لوهلة من عمر الزمن قصيرة.

